الأدب الجاهلي

الطبعـــة الأولى
شعبان ١٤١٢هـ
شـباط ١٩٩٢ م

حقوق الطبع محفوظة

التوزيع :
دمشق : مكتبـــة الإيمـان
هـاتـف ٤٤٥٦٦٥
حمص : مكتبة دار الارشاد
هـاتـف ٢٥٨٠٢

تاريخ الأدب العربي

الأدب الجاهلي

قضاياه . أغراضه . أعلامه . فنونه

تأليف

الدكتور
غازي طليمات

الأستاذ
عرفان الأشقر

دار الارشاد بحمص

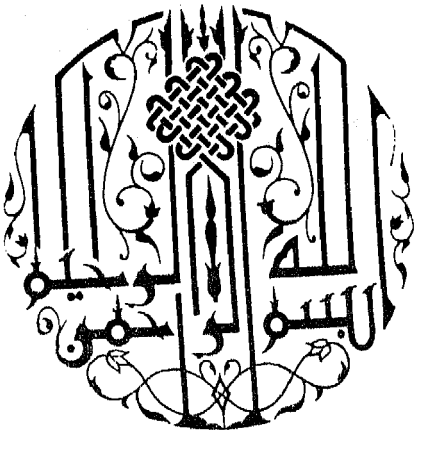
بسم الله الرحمن الرحيم

ليس تأريخ الأدب العربي بدعة لا سابقة لها، فقد نهض به في قرننا العشرين أدباء وباحثون، أغنَوْا مكتبة الأدب العربي بأسفار قيّمة، أفاد منها مؤلّفا هذا الكتاب. غير أن هذه الأسفار لاتضع بين أيدي الطلاب مايطلبون، ولاتجيبهم عن كُلّ مايسألون، لا لأنّها دون مقاصدهم، بل لأنها فوق هذه المقاصد، ولا لقصور في مناهجها، بل لقصور الطلاب عن الإفادة من هذه المناهج.

كان هَمُّ الرّادة من مؤرخي الأدب العربي العلم لا التعليم، وقد نهضوا بما ندبوا أنفسهم له على خير وجه. فاجتَنَوْا من حدائق الأدب العربي شعره ونثره أنضر الزّهر، وأطيب الثمر، لكنهم لم يأطروا الغصون العالية المثقلة بالثمرات ليبلغ شأوها قصار الهمم، فظلت ضنينة بما تحمل، اجتنى منها المتمرّسون بالأدب القديم ماطاب لهم الجنى، وقصّر عنها الناشئة، فارتدّوا وفي أناملهم الغضة يسير من زهر وثمر، وكثير من وخز ووشم: وخزٍ من شوك الشجر، ووشمٍ من إبر النحل، وكلاهما ينطوي على ألم لذيذ لايحتمله عن طيب نفس إلّا التوّاق إلى الاكتشاف والاقتطاف.

وطلابنا من صنف آخر، من صنفٍ نشّأته التربية الحديثة على اللّين والدَّعة، وجعلته يؤثر ورد الأُصُص والعسل المصفّى على اختيار الوردة من أجمتها الشائكة، واشتيار الشّهدة من خليتها البكر، وإذا قست حديقة العصر الجاهلي بحدائق الأدب في العصور الأخرى وجدتها ـ وهي بنت الصحراء ونباتها ـ أنضرها ورداً وأكثرها شهداً، وآلمك أن يُحرَمَ الناشئة لذتي الاختيار والاشتيار، ووجدت نفسك بين اثنتين:

أولاهما أن تكلّفَ الناشىء اجتياز الفلوات ليبحث عن واحات الأدب الجاهلي في المفاوز المخوفة بلا رائد يقود، ولا دُرْبة تروض، فإمّا أن ينهكَهُ الظمأ قبل أن يرد، فيرتدّ وهو ظامىء كما راد وهو ظامىء وإمّا أن يبلغ المورد، وفيه بقية من عزيمة، لاتعينه على الارتشاف، فينكُص على عقبيه.

والثانية ـ وهي التي تخيّرها مؤلّفا هذا الكتاب ـ أن تقود الناشىء إلى أيكة وارفة الظلال يانعة الثمر، وكلاكما على بيّنة، أنت على بينة ممّا تعطي، وهو على بيّنة مما يأخذ، تخطو أمامه الخطوة الراشدة، فيخطو وراءك أختها، وترسل أصابعك الدَّرِبة بين الأغصان المشتبكة، فيرسل أصابعه خلف أصابعك باحثاً عن الغصن الأُملود، والثمرة اليانعة، فيعرف كيف يقطف، ثم تذيقه من طيبات ماذقت فيسيغ مايمضغ غير شرق ولامتكره، فإذا سرى في أعراقه نسغ الأدب الجاهلي الأصيل أوحيت إليه بالتلميح لا التصريح أن وراء هذه القطوف المعدودة ألوفاً من واحات لاتعدّ، فيها نخيل وأعناب، وعيون عذاب، فإذا هو ينزع يده من يدك، ويساور الأقناء الشوامخ، ويشرب من قمة الينبوع، فلا يزيده ما ذاق إلا شوقاً إلى ما لم يذق، ورغبة في الانتقال من العريق الجميل إلى الأعرق الأجمل، ومن الذي أدنته يدك إلى الذي لم تلامسه يدٌ قطّ.

على هذا النحو من تصوّر الهدف صوّر المؤلّفان ـ وكلاهما مدرّس ـ خطة الكتاب، فحرصا الحرص كله على أن يسيرا بالطلاب بين مباحث الكتاب سير الدليل بالسياح خلال الأطلال، يشرحان أفكار الأشعار قبل ذكرها كما يبسط الدليل تاريخ الآثار قبل أن يخلّيَ بينها وبين العيون، تتقراها متحقّقة متذوقة. فإذا خطر لقارىء النص أن يسأل عن لفظ لم يفهم معناه، أو عبارة لم يدرك دلالتها وجد تفسير الغريب في ذيول الصفحات، وإذا رغب في التفرّد بنص يتحسس جماله بذوقه وحده وجد في أعقاب البحوث قصائد أبكاراً، ففكّر وقدّر، وتأمّل وتذوّق غير متأثر بمفسّر، ولامتقيد بمنهاج.

وقضت الخطة المتصوّرة أن يقسم الكتاب إلى أبواب، والأبواب إلى فصول على النحو التالي:

أول الأبواب وأقصرها مقصور على دراسة اللغة العربية والأدب العربي.

وثانيها متصل بحياة العرب في العصر الجاهلي، وبقضايا الأدب في ذلك العصر، كتوثيقه وتحقيقه ودراسة عمود الشعر ووحدة القصيدة الجاهلية.

والثالث ـ وهو أوسع الأبواب ـ وأهمُّها خاصٌّ بموضوعات الشعر الجاهلي، وفيه بحوث مفصّلة، غزيرة النصوص، بعضها من شعر الأعلام، وبعضها من شعر الأغفال. وينطوي على ثمانية فصول تدرس الوصف، والغزل، والفخر، والمدح، والهجاء، والرثاء، والحكمة، والصعلكة. وهي أبرز الأغراض في الشعر الجاهلي، وماسواها من الأغراض مندرج فيها، أو تابع لها، كانطواء الغزل على وصف الطلل، وملابسة الحماسة الفخر.

وفي الباب الرابع - وهو لا يقلّ عن الثالث خطراً - دراسة تناولت شعراء المعلقات، فترجمتْ وفصّلتْ في الترجمة، وبحثتْ ووفت البحث حقّه من التفصيل. تحدثتْ عن حياة الشاعر وأغراضه ومنزلته وخصائصه الفنية، وشُفعَت الدراسة بشواهد كافية، وأتبعَت الدراسة نموذجات ومُقَطّعات متميزة من شعره.

وقضت الخطة أن يكون للشعراء الصعاليك باب، فدرستْ ثلاثة منهم في الباب الخامس وثلاثة الصعاليك هم عُروة بن الورد، وتأبّط شرّاً، والشّنفرى.

وحاولت الخطة أن تخصّ الكتاب بجديد مفيد، لايقع عليه الطلاب في كتاب آخر فجعلت الباب السادس كله مسرداً بأسماء الشعراء يضمّ نحواً من أربعمئة شاعر من الأعلام والأغفال ولم ينتظم هذا المسرد في السِّلك الذي انتظمه إلا بعد تنقير عن أسماء الشعراء وأخبارهم وأشعارهم في مظانّها، فمن قنع باليسير من الكثير اجتزأ من أخبار الشاعر وأشعاره بشَذْرات بوارق تعرّفه، وتشفع التعريف بإحالات مرقومة إلى المصادر. ومن رغب في الدرس المفصّل أحالته الترجمة المجملة إلى الدراسة المفصلة، أو إلى الأخبار المأثورة، والديوان المطبوع، وأراحته من الحيرة وطول البحث.

وختم المؤلفان الكتاب بباب وقفاه على النثر في العصر الجاهلي، تناولا فيه نشأة النثر وأنواعه، كالخطب والأمثال والقصص والرسائل.

ولمّا كانت غاية الكتاب التعليم، وتيسير العسير، فقد حرص الحرص كله على الوضوح، فذلّل الصعب، وراض الجموح، وتخيّر أجمل النصوص، ودأب في توضيحها مااستطاع، فلم يُغفل شرح غريب، ولم يُهمل تقريب بعيد، ولم يُثقل الطلاب بدراسات لايحتاجون إليها. ولم يُطل في تدبيج مقدمات لاغناء فيها، ولم يجد غضاضة في الإلحاح على الشرح.

وبعد :

فكل عمل شريف، وأشرف الأعمال التأليف، لأنه يصدر من العقل، ويرمي إلى بناء العقل، والأدب الجاهلي يعدّ من أرسخ الأركان في بنية الفكر العربي، فيه التاريخ واللغة، والمآثر والمفاخر، والفن والجمال. وإذا كانت الشعوب القديمة تَعُدّ الشعر فناً من فنون الحياة، فقد أوشك عرب الجاهلية يعدونه الحياة نفسها، يفرغ فيه الشعراء أيام العرب وأنسابهم، ومثلهم وقيمهم، ويصوّرون به حربهم وسلمهم، فإذا تناقلته العصور أحسّ فيه الأحفاد نخوة الأجداد، ووجدوا فيه مايجد النبات في الديمة المدرار، والنبع المتفجر، والشعاع الدّافىء، فيزكو ويُمرع.

ولهذه الغاية كان هذا الكتاب، فإن استطاع أن ينفح الطلاب بشيء من هذا الفيض الفطري الذي تسمو به الحياة، فالفضل لأصالة الشعر الجاهلي وعراقته. وإن أخفق فعليه اللائمة، وإن وقع بين بين فقد عرَف طريقه، وحسبه من النجاح أن يخطوَ الخُطوة الأولى إليه.

الباب الأول

اللّغة و الأدب

يتضمن الباب الأول

- الفصل الأول: اللّغة العربيّة
- الفصل الثاني: الأدبّ

الفصل الأوّل
اللغة العربيّة

[تعريف اللّغة / أنواع اللّغات / العربيّة أمّ اللّغات السامية / عربيّة مضر وعربيّة حمير / نشأة العربيّة المضرية / اللهجات العربيّة / تأثير اللهجات في العربيّة المضريّة / تطور العربيّة وتأثرها باللّغات الأجنبية]

تعريف اللغة

من قصد إلى الإيجاز في تعريف (اللغة) قال كما قال الجرجاني وابن منظور: «إنّها أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم» ومن قصد إلى الإيضاح قال: اللّغة وسيلة من وسائل التعبير عن الأفكار والمشاعر والمقاصد، وعاملٌ هام من عوامل الحياة الفكرية والقومية لَدى الأمم، بها يتواصل الناس ويتفاهمون في الجيل الواحد، وبها ينقلون حضارتهم وخصائصهم القومية من جيل إلى جيل.

أنواع اللغات

ويستطيع الناظر في لغات البشر أن يظفر بثلاث زمر:

١) أولاها اللغات القديمة الميتة التي سادت في عصر من العصور الماضية، ثم بادت، أو بقي منها في اللغات التي ولدتها ألفاظ وتراكيب قليلة تتداولها ألسنة الأحفاد كالفارسية القديمة والفينيقية.

٢) والثانية اللّغات المهجورة التي أمسك أهلها عن التحدث بها، فحفظتها كتب

التراث، أو انزوت في محاريب المعابد، فلا يعنى بها غير المعنيين بدراسة الأوابد، ولاتدبّ فيها الحياة إلّا في الأذكار والصّلوات كاليونانية القديمة واللاتينية.

٣) والثالثة اللّغات الحية، وهي التي تتكلمها اليوم شعوب الأرض، كالإنكليزية والفرنسية والعربيّة.

واللّغة العربيّة واحدة من أقدم اللّغات الحيّة، يجعلُها علماء اللّغات الحيّة «فرعاً من فروع اللّغة الآرامية التي كانت حيّة قبل ألوف السنين». ولعلّ اسمها واسم العربّ الذين يتكلمونها مشتقان من (الإعراب) وهو الإبانة. قال ابن فارس: «أعرب الرّجل عن نفسه إذا بيّن وأوضح.. فأمّا الأمّة التي تسمّى العرب فليس ببعيد أن تكون سُميت عرباً من هذا القياس، لأن لسانها أعربُ الألسنة، وبيانها أجود البيان».

وممّا يثبت صحة هذا الرأي أنّ العربية تميزت من أخواتها الساميّات بالحفاظ على الإعراب الكامل، إذ العبرية والسريانية مجردتان من حركات الإعراب، وألفاظهما مبنيات الأواخر على السكون. والعربية تلتزم البناء على السكون في يسير من ألفاظها مثل (اكتبْ، كمْ، هلْ)، وتزين أواخر القدر الأعظم من ألفاظها بالفتحة والضمّة والكسرة والتنوين، ممّا دفع بعض الباحثين إلى الاعتقاد بأنّ العربيّة هي اللّغة السامية الأمّ.

وسواء أكانت العربيّة اللّغة السامية الأمّ أم البنت الكبرى في هذه الأسرة اللّغوية العريقة، فإن حفاظها على الإعراب، وقدرتها على التطور، وبقاءها حيّة إلى اليوم من أعظم الأدلة على قوتها وتفوّقها على أخواتها.

والعربيّة التي نعنيها في هذا البحث هي لّغة مضر عرب نجد والحجاز، لا لّغة حمير عرب اليمن، لأن بين اللّغتين فروقاً تجعل كلًّا منهما لغةً متفرّدة. قال أبو عمرو بن العلاء: «مالسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا، ولا عربيّتهم بعربيّتنا». ثم بادت لّغة حمْير، وسادت لغة مضر بعد أن نزل بها القرآن الكريم.

ومن القضايا التي شقّ على الباحثين في العربيّة المضرية أن يصلوا فيها إلى رأي قاطع بدايات هذه اللّغة، وتحديد زمان نشأتها، وزمان نضجها، لأنّ أقدم نصوصها المكتوبة التي وصلتنا لايزيد عمره على سبعة عشر قرناً. ولايعني هذا أن عربية مضر لم تكن قوية مكتملة قبل القرن الثالث الميلادي، وإنّما يعني أنّ البداوة التي وسمت حياة الناطقين بها حرمت هذه اللغة نعمة الاستقرار والتحضّر، ومايصحب الاستقرار والتحضّر من تشييد الصروح والنقش على الحجر، وتخليد اللّغة بالكتابة على الأوابد،

فظلّ وصول هذه اللّغة إلينا مقصوراً على النصوص التي تناقلتها صدور الحفظة والرّواة.

وربّما كان لحياة هذه اللّغة في مُناخ قبلي وجه آخر من أوجه النشاط والتحدي، وهو تعرّضها لمزاحمة لهجات عربية أخرى، وخروجها من هذا الزحام ظافرة، ثم ذيوعُها بين القبائل التي كانت وفودها تؤمّ الحجاز في مواسم الحجّ، وتخالط المضريين في أسواق الأدب والتجارة كسوق عكاظ، ثم اختيارها من بين اللهجات لغة أدبية راقية، فإذا هي عامل من عوامل الوحدة الفكرية بين قبائل الشمال، وإذا اللهجات الأخرى التي صنعتها العُزلة تضعف ثمّ تختفي، ولايبقى من ظواهرها اللّغوية، وسماتها الخاصة غير أمور يسيرة، لاتجعلها لغات أو لغيّات متميزة من لغة مضر، بل تضعفها حتى تصهرها في هذه اللّغة الأدبية الراقية.

ولايفهمنّ من ذلك أن الخلاف بين اللهجات القبلية كان عميقاً يظهر في جذور اللّغة، وطرائق التعبير، وأساليب بناء الجمل والتراكيب. وإنّما هو خلاف يسير تمثّل في ظواهر وسمات سطحية أبرزها ميلُ بعض اللهجات إلى الإدغام وإعراض أخرى عنه (شُدَّ الحبل، أو اشدده)، وإيثار بعضها الهمز وبعضها التسهيل (سأل، أو سال)، وإعمال بعض الأدوات عند قوم وإهمالها عند قوم (ماهذا بشراً، أو بشرٌ) وإعراب طائفة من الكلمات في لهجة وبناؤها في لهجة ثانية (جاء أمس، أو أمسٌ).

وربّما أدّى تعدد اللهجات إلى اختلاف يسير أو كبير في معاني طائفة من الألفاظ، وإلى ثراء اللّغة المضرية التي صبّت فيها اللهجات البدوية الأخرى، فكثرت فيها المترادفات المتعلقة بالصحراء. قال ابن خالويه: «جمعت للأسد خمسمئة اسم، وللحيّة مئتين». كما أدّى ذلك إلى دلالة اللفظة الواحدة على عدة معان، لاتربط بينها روابط اشتقاقية، كدلالة لفظة (الخال) على سبعين معنى، ودلالة لفظة (العين) على بضعة وأربعين. ولعلّ ذلك يعود إلى اختلاف دلالة هذين اللفظين من قبيلة إلى قبيلة. وهكذا اتّسمت لغتنا بظواهر لغوية، لاتخلو منها اللغات الأخرى، كالتضاد والترادف، والاشتراك اللفظي.

ولم يقف تطور العربيّة عند هذا الحدّ، فإنّها، كغيرها من اللّغات، تأثرت بعوامل ساعدت على تطويرها، فغيرت دلالات بعض الألفاظ ضروباً من التغيير، كتعميم الدلالة الخاصة، وتخصيص الدلالة العامة، ونقل الدلالة من المحسوس إلى المجرّد، ومن الحقيقة إلى المجاز.

بل تعرضت ـ شأنُها في ذلك شأنُ اللّغات الأخرى ـ إلى التأثر باللّغات التي

كنفتها أو عايشتها كالفارسية والعبرية والحبشية والرومية، إذ لم يكن للناطقين بالعربيّة بدٌّ من الاتصال بجيرانهم الناطقين بهذه اللّغات، فخالطوهم، ونقلوا من ألسنتهم ألفاظاً أعجمية، صبّوها في أوزان عربيّة، أو صقلوا حروفها وإيقاعها حتى ساغت في الأذن العربية (كالقرطاس، والدرهم، والياقوت، والكرسيّ).

وممّا ساعد لغتنا على التطور المستمرّ مادتها الطيّعة التي تتقبّل إصلاح الألفاظ بالإبدال والإعلال والقلب والحذف، وطبيعتها الاشتقاقية الولود القادرة على اختراع الألفاظ الجديدة للمعاني الجديدة، بالنحت حيناً، وبالاشتقاق في أكثر الأحيان، وماينطوي عليه الاشتقاق من ثراء عريض بألفاظ تدخرها اللّغة لترجمة ماتبتكره الحضارةُ الإنسانية من علوم وفنون وآلات.

الفصل الثاني
الأدب

[معنى الأدب / نشأته وصلته بالحياة / تاريخ الأدب / تقسيم تاريخ الأدب إلى عصور / أقسام الأدب وفنونه: الشعر وفنونه ـ النثر وفنونه / مناهج الدراسة الأدبية]

معنى الأدب:

الدعاء

«أصل الأدب الدّعاء» ومنه (المأدبة) التي يُدعى إليها النّاس. ومع مرور الزمن انتقلت دلالة اللفظة من معناها الحسيّ إلى المعنى المجرّد. جاء في تاج العروس: «الأدَب محرّكةً الذي يتأدب به الأديب من النّاس، سمّي به لأنه يأدب الناس إلى المحامد، وينهاهم عن المقابح» وهكذا انطوت اللفظة على دلالة خُلُقية هي التعليم والتهذيب والتثقيف. وبهذا المعنى وردت اللفظة في حديث الرّسول صلّى اللّه عليه وسلّم: «أدّبني ربّي فأحسن تأديبي».

التهذيب

وبقيت لفظة الأدب محافظة على معنى التهذيب، كما يرى مصطفى صادق الرافعي، حتى منتصف القرن الثالث للهجرة، إذ قال: «إنّ لفظة الأدباء بقيت في القرن الثاني الهجري خاصة بالمؤدّبين، لاتطلق على الكتاب والشعراء، واستمرت لقباً على أولئك إلى منتصف القرن الثالث». ولما كان المؤدّبون أي: المعلّمون أصنافاً، فيهم النَّحْويُّ واللُّغَويُّ والعالم والشاعر فقد شملتْ لفظة الأدباء هؤلاء جميعاً، وفشت بين القوم عبارة الخليل بن أحمد [ت ١٧٥ هـ] التي رمى بها المتكسّبين بالعلم والتعليم، وهي «أدركته حرفه الأدب» فإذا قيل عن شاعر أو كاتب أو عالم مثل هذا القول كان القصد وصمه بالفقر والحاجة التي تدفع أهلَ العلم إلى التكسُّب بالتعليم.

حرفة الأدب

وفي القرن الرابع أخذت ألفاظ (الأدب والأدباء والمؤدّبين) تتخصّص، وأخذ الناس يطلقون كلمة (الأدباء) على الشعراء والكتاب المشتغلين بالمنظوم والمنثور. ويعلّل الرافعي هذا التخصّص بقوله: «ولمّا فشت أسباب التكسّب بين الشعراء في القرن الثالث، وبطلت العصبية التي كانت تجعل للشعر معنى سياسياً، فاتخذوه حرفة يكدحون بها، وجعلوه ممّا يتذرّع به إلى أسباب العيش انتقل إليهم لقب الأدباء

الأدب هو الشعر والنثر

للمناسبة بين الفئتين في الحرفة، ولم يلبثوا أن استأثروا به لتوسعهم في تلك الأسباب. وأطلقت لفظة (الأدب) على فنون المُنَادَمَة وأصولها. ولم ينتصف القرن الرابع حتى كان لفظ الأدباء قد زال عن العلماء جملة، وانفرد بمزيته الشعراء والكتاب.»

نستنبط من هذا العرض أنّ لفظ (الأدب) مرَّ في تطوره ببضع دلالات قبل أن يأخذ معناه الاصطلاحي الذي ثبت عليه. بدأ بالدعوة إلى المآدب، ومنها انتقل إلى التهذيب، ثم غدا بمعنى التكسُّب بالتعليم، وأخيراً استقرّ على معناه المعهود، وهو التعبير الفنّي بالشعر والنثر عن معنى من معاني الحياة بأسلوب جميل، أو هو الكلام الجميل المؤلّف بطريقة فنية تؤثّر في النّفْس، وتستثير فيها حبّ الخير والفضيلة والجمال، وتبغّض إليها الشرّ والرّذيلة والقبح.

وقد يكون التّعريف الوارد في المعجم الأدبي أوفى بالغرض من التّعريفات السّابقة. جاء في هذا المعجم: «الأدب في معناه الحديث هو علم يشمل أصول فنّ الكتابة، ويعنى بالآثار الخطّية النثريّة والشعريّة، وهو المعبِّر عن حالة المجتمع البشري، والمبين بدقة وأمانة عن العواطف التي تعتمل في نفوس شعب أو جيل من النّاس، أو أهل حضارة من الحضارات.»

نشأته وصلته بالحياة:

اختلفت آراء الباحثين والنّقاد في الباعث على نشأة الأدب أو إنشائه، فمنهم من ردّه كغيره من الفنون إلى رغبة الإنسان في اللّعب الذي يفرغ طاقة النّفْس الزّائدة، قال فردريك فون شالر: «إنّ اللّعب تعبير عن الطّاقة الفائرة، وإنّه أصل كلّ الفنون.» وقال سبنسر: «إنّ اللّعب هو أصل الفنون، وإنّه تعبير غير هادف عن الطّاقة الزّائدة» وذهب كانت إلى أنّ «الفنّ سرور أو ارتياح بلا هدف، أو متعة خالصة من أيّ غرض.» والجامع بين هؤلاء العلماء هو ردّ الأدب إلى مَنْبَع فرديّ، ونشاط خاصّ، وملكة ذاتية.

وربّما كان ابن خلدون أقرب إلى الصواب من هؤلاء، إذ ردّ هذه الملكة الخاصة التي يتباهى بها الأديب إلى أصول اجتماعية، فجعلها ثمرة للثقافة التي يحصّلها الكاتب أو الشاعر من حفظه المنثور والمنظوم، وتمرسه بأساليب البلغاء، فقال وهو يتكلم على الأدب: «المقصود منه عند أهل اللّسان ثمرته، وهي الإجادة في فنّي المنظوم والمنثور على أساليب العرب ومناحيهم، فيجمعون بذلك من كلام العرب ماعساه تحصل به الملكة.»

وفي العصر الحاضر يقف أكثر الدارسين إلى جانب ابن خلدون، فقد وضّح

خلاصة معاني الأدب

معنى الأدب حديثا

الأدب لعب فني

الأدب ثمرة الثقافة

الأدب ظاهرة اجتماعية

الـدكتـور علي عبـد الـواحـد وافي النشـأة الاجتـماعية للّغة، فقال: «اللغة ظاهرة اجتماعية، فهي ليست من الأمـور التي يصنعها فردٌ معيّن أو أفراد معيّنون، وإنّما تخلقها طبيعة الاجتماع، وماتقتضيه هذه الحياة من تعبير عن الخواطر وتبادل للأفكار.» ويمكن أن نطلق هذا الحكم على الأدب، لأنّه ظاهرة اجتماعية تتمثّل فيها الصّورة الفنيّة للّغة.

إنّ ارتبـاط الأدب بالمجتمـع يجعـل له سلطاناً على الأفراد، ويجعل تطوره مرهوناً بقـوانين المجتمع وهو لايسير تبعاً للأهواء والمصادفات، ولاوفقاً لإرداة الأفراد، وإنّما يخضع في سيره لقوانين ثابتة مطردة. وكلّ خروج على نظامه ـ ولو كان عن خطأ أو جهل ـ يلقى من المجتمع مقاومة، تكفل ردّ الأمور إلى نصابها الصحيح.

والقـوى التي تؤثـر في الأدب كثيرة، يصعب حصرها، إذ تُؤثّر فيه السياسة، والثّقافة، والدّين، وأنظمة الاقتصاد، والثّقافة الأجنبيّة الوافدة. كما يؤثر فيه رقيّ الأمّة وانحـطاطهـا. غير أنّ تأثره بهذه العوامل لايعني أنه منفعل لافاعل. فكثيراً مايكون الأدب أحد العوامل البارزة في يقظة الشعب، ولمّ شعثه بعد الفرقة، ونقل قيمه ومثله العليا من جيل إلى جيل، وتكوين رأي عام موحّد. وكثيراً مايحرض الأدب الجماهير على رفض الواقع السيِّء والثورة عليه، فيفرغ النّفوس من الغضب والقهر والكبت، ويفجّر طاقاتها المبدعة، ويرسم معالم المستقبل. وهكذا لايقلّ تأثيره عن تأثره، ولايكون انفعاله بالحدث أظهر من مشاركته في صنع الحدث.

تاريخ الأدب:

إن الاختـلاف في تعريف (الأدب) يقود إلى الاختلاف في المقصود من تاريخ الأدب، وفي النّطاق الذي تدور فيه مباحث التأريخ الأدبي.

فإذا أخذنا بالقول الذي أورده ابن خلدون، وهو «قالوا: الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها، والأخذ من كل علم بطرف.» كان على المؤرخ الأدبي أن يؤرخ الحياة العقليّة والنفسيّة للشعب العربيّ، لأنّ (الأخذ من كلّ شيء بطرف) يعني إغناء الأدب شعره ونثره بعلوم اللّغة العربيّة كالنحو والبلاغة والعَروض، وبالعلوم الشرعية، أو ـ على الأقل ـ بنصوص الحديث الشريف والقرآن الكريم، وبالعلوم الإنسانيّة كالفلسفة وعلم الاجتماع. وهذه العلوم كلّها ترفد الأدب وتعين على فهمه.

وإلى مايشبه هذا المعنى ذهب كارل بروكلمان وجرجي زيدان في تأريخهما للأدب العربي، إذ درسا، إلى جانب الأدباء من الكتّاب والشّعراء، فلاسفة العرب وعلماءَهم، وقـدمـا لنـا دراسـة واسعة شملت تاريخ الحياة الفكريّة والأدبيّة عند العرب. وتميّز

بروكلمان من زيدان بالدّقّة والاستقصاء، وبالعناية بذكر الآثار التي تركها كلّ أديب، ويذكر المصادر التي تعين على دراسته.

معناه الدقيق تاريخ الشعر والنثر

وإذا أخذنا بالقول الذي ذكرناه قبل، وهو أنّ الأدب كلام جميل يؤثّر في النّفس ويرغّبها في الفضيلة والجمال، وينفّرها من الرّذيلة والقبح، كان على مؤرخ الأدب أن يقصر مباحثه على دراسة الأدب شعره ونثره، فيعرض موضوعاته، ويلاحق تطوّره، ويبرز ملامحه وسماته في كلّ عصر من العصور، وكان عليه كذلك أن يلمّ بحيوات الكتّاب والشّعراء وأن يحلّل شخصياتهم ليكشف عمّا تأثّروا به من أمور الثّقافة والاقتصاد والسياسة والدّين.

رأي عمر فروخ

وإلى هذا المعنى ذهب أستاذنا الدكتور عمر فروخ، فقال: «تأريخ الأدب فنّ من فنون المعرفة، يتعلق بتعاقب أعصر الأدب، وبتطور الخصائص الأدبية مع الإلمام بسير الأدباء، وبإحصاء إنتاجهم، وبالتمييز بين **خصائصهم**.» **ولذلك قصر تاريخه** الضّخم على دراسة الشعر والنثر وفق التعريف الذي وضعه، وخصّ الفكر العربي بسفر آخر.

تقسيم تاريخ الأدب إلى عصور:

أساس الدراسة التقسيم

لعلّ أهمّ مافي الدراسات الحديثة التنظيم والتقسيم، فإنّ دراسة تاريخ مديد كتاريخ الأدب العربي، عمرُه ستة عشر قرناً على الأقل، لاتتمخض عن نتائج دقيقة مالم يخضع تراثنا الأدبي الضخم لشكل من التقسيم ينتظم أغراضه وظواهره، ويقسم تطوّره إلى مراحل وعصور. لهذا قسّم مؤرخو الأدب العربيّ تراثنا إلى أقسام، فما الأساسُ الذي اعتمدوا عليه في هذا التقسيم؟

أعصر الأدب وأعصر السياسة

تتبّع أستاذنا الدكتور شكري فيصل الرّعيل الأوّل من مؤرخي الأدب العربي في هذا العصر، فوجد أنّ أسبق الدارسين، وهو حسن توفيق العدل ربط الأدب بالسياسة، وقسّم التاريخ الأدبي إلى أعصر تعدل الأعصر التاريخية السياسية» وصنع أحمد حسن الزيات مثل صنعه، واحتج لمذهبه بقوله: «التاريخ الأدبي وثيق الصلة بالتاريخ السياسي والاجتماعي لكلّ أمّة، لذلك اصطلحوا على أن يقسموه على حسب العصور التاريخية والانقلابات الاجتماعية، واتفق أكثر كتّابنا على أن يقسموا تاريخ أدبنا إلى خمسة أعصر».

أعصر تاريخ الأدب العربي

وتتعاقب هذه الأعصر الخمسة على النّحو التّالي:

١ ـ عصر الجاهليّة: نهايته ظهور الإسلام وعمره قرن ونصف.

٢ ـ عصر صدر الإسلام: بدايته ظهور الإسلام ونهايته سقوط بني أمية عام ١٣٢هـ.
٣ ـ عصر بني العباس: أوّله سقوط بني أمية وآخره سقوط بغداد بأيدي المغول عام ٦٥٦هـ.
٤ ـ عصر الدول المتتابعة: أوّله سقوط بغداد ونهايته بداية النهضة عام ١٢٢٠ هـ تقريباً.
٥ ـ عصر النهضة الحديثة: مطلع هذا العصر حكم محمد علي باشا في مصر ونهايته غير محددة، لأنّه مايزال مستمراً إلى يومنا هذا.

التقسيم تقريبي

ولابدّ من الإشارة هنا. إلى أنّ هذا التقسيم للتقريب، لا للتحديد، وأنّ نهاية عصر وبداية عصر لاتعنيان بالضّرورة أنّ الأدب قد تغيّر، وإنّما تعنيان أنّ ظروفاً سياسية جديدة قد حدثت، وأنّ هذه الظروف معَ عوامل أخر، تساعد الأدب على التطوّر والتغيّر.

أقسام الأدب وفنونه:

أ ـ الشّعر وفنونه:

مسائل الشعر والنثر

إنّ تقسيم الأدب إلى شعر ونثر أمرٌ واضح لم يستثر جدالاً عنيفاً بين النّقاد، غير أنّ مسائل متصلة بهذا التقسيم أثارت الجدال، واستوقفت الباحثين:
أولاها تمييز الشعر من النثر بحدّ جامع مانع.
والثانية الخلاف فيهما أيّهما السابق.
والثالثة ظهور الشعر كيف تمّ، وماالصورة الأولى من صوره.

حد الشعر تعريف قدامة

أمّا المسألة الأولى فقد أثارها قديماً قدامة بن جعفر (توفيّ سنة ٣٣٧هـ) إذ عرّف الشعر بأنّه «قول موزون مقفّى يدلّ على معنى». ثم جاء الدارسون المحدثون فجادلوا قدامة، ورمَوْا تعريفه بالنقص، وبأنّه لايأخذ من الشعر إلاّ جانبه الشكليّ. وقَبِلَ التعريف مَنْ قبلَهُ بعد أن قيّده بقيود، ورفضه مَنْ رفضه، واقترح تعريفاً آخر لايقلّ عنه غموضاً وإثارة للمجادلة.

تعريف فروخ

عدّله أستاذُنا الدكتور عمر فروخ، وقيّده بشروط فنية، فقال: «فإذا امتاز النّظم بجودة المعاني وتخيّر الألفاظ، ودقة التعبير، ومتانة السّبك، وحسن الخيال معَ التأثير في النّفس فهو الشعر. وقد تكون هذه الخصائص في الكلام من غير أن يكون موزوناً، ونظلّ نسميه شعراً».

وحاول الرافضون أن يصوغوا تعريفاً آخر، يشمل عناصر الشعر الشكلية